المحاضرة رقم10

التعليل النحوي

1- وجود التعليل في النحو:

يمكننا أن نصف التعليل بأنه منهج عقلي سلكه النحاة الأوائل، وحاولوا من خلاله تفسير وتبرير أحكام الكثير من الظواهر اللغوية التي كانت في حاجة إلى التحليل والتفسير حتى لا تبقى غامضة، وقد قامت في عقول العرب علل ما نطقت به من ظواهر لغوية على سجيتها، وما كان للنحاة سواء الاحتذاء بها.

يذكر السيوطي قول صاحب المستوفي في حقيقة وجود التعليل في النحو: "إذا استقريت أصول هذه الصناعة، علمت أنها في غاية الوثاقة، وإذا تأملت عللها عرفت أنها غير مدخولة ولا متسمح فيها"[1]، ويذكر السيوطي كذلك بيان الحكمة من وجود العلل من خلال النظر في الصيغ و الأوضاع واستعمالها، لا بد أن نقف إزائها وننظر فيها لعلمنا أنها من وضع واضع حكيم جلّ وعلا تطالبنا بها وجه الحكمة لتلك الحال من بين أحوالها، فإذا حصلنا عليه، فذلك غاية المطلوب.[2]

ويرى ابن جني أن علل النحويين أقرب إلى علل المتكلمين، منها إلى علل المتفقهين، لأنها علل حسية ويحتجون فيه بثقل الحال أو خفتها على النفس، وليس كذلك على الفقه؛ لأنها علل خفية.[3] ويذكر ابن جني أن العرب قد أرادت من العلل والأغراض ما ينسب إليها ويضرب مثلا عن ذلك في اطراد رفع الفاعل ونصب المفعول، والجر بحروفه، والنصب بحروفه، والجزم بحروفه،

---

[1] الاقتراح ، ص 96

[2] المصدر نفسه، ص 96

[3] ابن جني، الخصائص،ج1، ص 144.

وغير ذلك [1]. فهل يحسن القول أن يعتقد أن هذا كله اتفاق وقع؟ فالله عزّ وجلّ قد جبلهم وهداهم إلى هذا العمل لأن في طباعهم قبولا له.

وقد أثبت الخليل ذلك لما قال أن العلل قد قامت في عقول العرب ونياتهم "إن العرب قد نطقت على سحيتها و طباعها، وعرفت مواقع كلامها، وقامت في عقولها عللها، وان لم ينقل ذلك عنها، واعتللت أنا بما عندي أنه علة لما عللته به"[2] ، مما يدل على أن العلّة اجتهاد عالم كما يقول الأنباري (العلة دليل على الحكم بجعل جاعل)[3].

وقيل لابن جني: لسنا نعرف سبب أوجب العلل في هذه الأسماء دون غيرها، فإن كنت تعرفه فهاته، فقال: إذا حكمنا ببديهة العقل، وترافعنا إلى الطبيعة والحس، فقد وفينا الصنعة حقها وساق [4] العلة بعد ذلك. إن العرب قد عللوا لنطقهم، ومن حق النحاة أن يأخذوا عنهم ما عللوا به.

ومن نماذج تعليلهم ما حكاه الأصمعي: "عن أبي عمرو أنه قال : سمعت رجلا من اليمن يقول: فلان لغوب، جاءته كتابي فاحتقرها، فقال أتقول (جاءته كتابي) قال : نعم ، أليس بصحيفة؟"[5] وهكذا مسار النحاة على نهج العرب في تعليلها فراحوا يجردون العلل تجريدا مرتبطا بالتأصيل وغايتهم أن يجعلوا تعدية الحكم من الأصل إلى الفرع أمرا معقولا، لأن العلة أصبحت رابطا عقليا بين المستعمل الحسي والمجرد العقلي، على أن تسلط العلة على الفرع لا على الأصل، فصار من قواعد النحاة في الاستدلال أن الأصل لا يعلل، لأن الأصل دليل والدليل لا يعلل.[6]

---

[1] ابن جني، الخصائص، ج 1 ، ص 238

[2] محمد عيد، أصول النحو العربي في نظر النحاة و رأي ابن مضاء، ص 124

[3] لمع الأدلة ، ص.....

[4] ابن جني، الخصائص، ج 2 ، ص 237

[5] ابن جني، الخصائص، ج 1 ، ص 162

[6] تمام حسان: الأصول ، دراسة ابستيمولوجية ، ص 162

2- اختلاف النحاة حول التعليل:

التعليل في النحو يأتي بعد الأحكام النحوية التي تنتظم النطق العربي، وقد تقدم في القياس أن الباحثين في النحو أخذوا القياس من اللغة المشتركة ومن قبائل عدة فكان لديهم ما اتفقوا على نطقه وما اختلفوا فيه، لذلك جاءت تعليلاتهم مختلفة وكان لخلافهم المظاهر التالية :

أ- اتفقوا في تعليل المتفق على نطقه وحكمه كرفع المبتدأ والخبر ورفع الفاعل.

ب- اختلفوا في تعليل ما ورد نطقه مختلفا عن العرب.

3- مراحل تطور التعليم النحوي:

3-1 مرحلة النشوء والتكوين:

تعود إرهاصات التعليل النحوي الأولى إلى روايات وضع النحو العربي التي تشير إلى إدراك واضع النحو لخطر الانحراف عن سنن العرب في كلامهم وضرورة استنباط قوانين مطردة تشبه الكليات و القواعد، فقد قيل أن رجلا قرأ قوله تعالى: ﴿أن الله بريئ من المشركين ورسولِهِ﴾ بالجر وآخر (مات أبانا وترك بنون) وقالت ابنة أبي الأسود : (يا أبتي، ما أشدُ الحرّ) بالرفع، وهكذا... فأدرك واضع النحو الانحراف الذي ورد من غير أن يصرح بعلّة المعنى أو الفاعلية، أو المفعولية مما يشير إلى أن التعليل نشأ إحساسا فنيا قبل أن يصير اصطلاحا علميا.

وترتبط البداية الحقيقية للتعليل بعبد الله بن أبي اسحاق الحضرمي (ت 117 هـ)، فقد قيل عنه أنه أول من بعج النحو ومد القياس وشرح العلل[1] ، وذكر الدكتور عفيف دمشقية إلى أنه (محاولة تعليمية المراد منها تمرين الطالب على إعمال فكره لإخراج كل (فاعل) مثلا مرفوعا، وكل (مفعول

[1] حسن سعيد الملخ، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء و المحدثين، دار الشروق، عمان، الاردن، ط 1 ،ص 36

به) منصوبا، وكل (مضاف اليه) مجرور، وليس المقصود منها ذلك التي عرفت فيما بعد بالعلل الأول والثواني والثوالث).

ويبدو أن التعليل عند بن أبي إسحاق له مظهران:

أ-إعطاء حكم ما توجد فيه العلة الخاصة من كلامك الناس حكم ما توجد فيه العلة نفسها من كلام العرب المطرد، فتصبح القاعدة التي جردها باستقرائه علة للحكم النحوي.[1]

ب- التأويل، وهو التماس تخريج لما يأتي مخالفا لكلام العرب المطرد وقد كان تأويل ابن ابي إسحاق حملا على المعنى، وتميز التعليل في مرحلة النشوء بسمات نذكرها:[2]

- تأسيس أصل التوافق مع أحكام النحو: فقد ارتبط التعليل بالحكم النحوي، لأن غاية النحاة في هذه المرحلة هي إنشاء معيار نحوي، له من الاطراد، والتوسع ما يعصم من الخطأ.
- استخدام علة المعنى: لاحتواء بعض النصوص الخارجة عن حد الاطراد.
- نشأة الاجتهاد في التعليل: نتج عن عد المعنى معيارا من معايير التعليل أن تتفاوت قدرات النحاة على التعليل، لتفوات قدراتهم الذهنية.

3-2 مرحلة النمو والارتقاء:

وتتمثل هذه المرحلة ما وصلت إليه الدراسات النحوية في عهد الخليل بن أحمد الفراهيدي (175هـ) حتى نهاية القرن الثالث، ويمثل كتاب سيبويه (180هـ) مثال البحث الميداني المعتمد على الاستقراء الناقص، ففيه نماذج من الاستقراء، ووصف للمستقرأ، وتقعيد له، وتعليل للوصف والتقعيد. فمن تعليلات الوصف أنه كان يناظر بين النصوص، فيقرن بين النظير والنظير الذي يشبهه، ومن أمثلته: (زعم الخليل – رحمه الله أنهم نصبوا المضاف نحو : يا عبد الله ، و يا

[1] حسن سعيد الملخ، نظرية التعليل في النحو العربي بين القدماء والمحدثين، ص 37

[2] المرجع نفسه، ص 39

أخانا، والنكرة حين قالوا: يا رجلا صالحا، حين طال الكلام، كما نصبوا (هو قبلك، وهو بعدك، ورفعوا المفرد، كما رفعوا (قبل وبعد) وموضعهما واحد، وذلك قولك : يا زيد، ويا عمر، وتركوا التنوين في المفرد، كما تركوه في قبل).[1]

كما أن التعليل في كتاب سيبويه يربط بين نظامين: نظام اللغة بنصوصها المتباينة، ونظام النحو بتصوراته وأحكامه، ونتبه سيبويه إلى السياق واتخذ منه تعليلا كما في قوله "ومما ينصب على اضمار الفعل المستعمل اظهاره أن ترى الرجل قد قدم من سفره، فتقول : خير مقدم، أو يقول الرجل : (رأيت فيما يرى النائم كذا و كذا) ، فتقول : (خيرا وما سر)".[2]

ومن سمات التعليل في هذه المرحلة[3]:

- بناء التعليل على استقراء ناقص لكلام العرب.
- انتشار التعليل ومحاولة بناء تفسير كلي للنحو.
- تميز جماعة من النحاة بالتعليل (الخليل، سيبويه، علي ابن المبارك الأحمر الكوفي، يونس بن حبيب، الأخفش سعيد بن مسعدة، المازني، ثعلب، المبرد .)
- ارتباط التعليل بالتعليم.

3-3 مرحلة النضج:

تبدأ من بداية القرن الرابع الهجري، لما فيها من محاولات لوضع أطر منهجية نظرية للنحو العربي، وقد مثل هذه المرحلة عدد من النحاة منهم : ابن السراج (316هـ)، الزجاجي(337هـ)، السيرافي (368 هـ)، الرغاني(384 هـ)، ابن جني (392هـ)

---

[1] سيبويه الكتاب ، تحقيق عبد السلام هارون، ج 2، ص 183.

[2] المصدر نفسه، ج1 ، ص 270

[3] حسن سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص 46 .

ومن سمات التعليل في هذه المرحلة:[1]

- ظهور محاولات تنظيرية في التعليل كتصنيف ابن السراج لعلل النحويين، ثم جاء الزجاجي فجعل العلل ثلاثة أصناف.
- ظهور اتجاه معارض للمغالاة في استعمال العلل النحوية.

4- موقف ابن مضاء القرطبي من وجود التعليل في النحو:

اتفق ابن مضاء مع بعض آراء النحاة من أن التعليل وجد لبيان حكمة الله أو نيات ومقاصد ما نطقت به العرب و يتضح ذلك في قوله : (أن العلل الأول بمعرفتها تحصل لنا المعرفة بالنطق بكلام الكرم المدرك منها بالنظر)[2]. إلا أنه يرفض العلل الثواني والثوالث التي اصطلح عليها (و العلل الثواني هي المستغنى عنها في ذلك ولا تفيدنا إلا أن العرب أمة حكيمة.)[3]

5- تصنيف العلل عند سيبويه:

بلغت العلل عند السيوطي أكثر من عشرين نوعا وهي : علّة السماع، علّة تشبيه ،علّة استغناء،علّة استثقال،علّة فرق،علّة توكيد،علّة تعويض،علّة نظير،علّة نقيض،علّة حمل على المعنى،علّةمشاكلة،علّة وجوب،علّة معادلة،علّة تغليب،علّة اختصار،علّة تخفيف،علّة اصل،علّةاشعار ،علّة التضاد،علّة التحليل.

---

[1] حسن سعيد الملخ: نظرية التعليل في النحو العربي، ص 78

[2] ابن مضاء، الرد على النحاة، ص 131 .

[3] المصدر نفسه، ص 131